

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يَقْدَمُ:

(المُحَاضَرَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةُ)

مِنْ مَادَّةِ آدَابِ الْعِلْمِ وَأَفَاتِهِ

[آفَاتُ الْعِلْمِ]

المُحَاضَرَةُ السَّادِسَةُ

www.menhag-un.com

٩- النِّسيَانُ

النِّسيَانُ - بِكَسْرِ النُّونِ -: ضِدُّ الذِّكْرِ وَالْحِفْظِ، نَسِيَهُ نَسِيًّا، وَنَسِيَانًا، وَنِسْوَةً وَنَسَاوَةً وَنِسَاوَةً، الْأَخِيرَتَانِ عَلَى الْمُعَاقِبَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، قَالَ ثَعْلَبٌ: لَا يَنْسَى اللَّهُ شَيْئًا، إِنَّمَا مَعْنَاهُ: تَرَكُوا اللَّهَ فَتَرَكَهُمْ، فَلَمَّا كَانَ النِّسيَانُ ضَرْبًا مِنَ التَّرِكِ وَضَعَهُ مَوْضِعَهُ، وَفِي «التَّهْذِيبِ»: أَيُّ تَرَكُوا أَمَرَ اللَّهُ فَتَرَكَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ [طه: ١٢٦] أَيُّ: تَرَكْتَهَا فَكَذَلِكَ تُتْرَكُ فِي النَّارِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى﴾ [طه: ١١٥] مَعْنَاهُ أَيْضًا: تَرَكَ؛ لِأَنَّ النَّاسِيَّ لَا يُؤَاخِذُ بِنِسْيَانِهِ، وَالنِّسيَانُ: التَّرِكُ^(١).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَ (الْإِنْسَانُ)؛ لِأَنَّهُ عَاهَدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ، وَكَذَا رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْهُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ: تَرَكَ»^(٢).

(١) «لِسَانَ الْعَرَبِ» (نسي) (ص ٤٤١٦).

(٢) «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» لِابْنِ كَثِيرٍ (٣/ ١٦٧).

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَسِيَ﴾، لَهُ مَعْنَيَانِ: أَحَدُهُمَا: تَرَكَ؛ أَيْ: تَرَكَ الْأَمْرَ وَالْعَهْدَ، وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَأَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

وِثَانِيهِمَا: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿نَسِيَ﴾ هُنَا مِنَ السَّهْوِ وَالنَّسْيَانِ، وَإِنَّمَا أَخَذَ الْإِنْسَانُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ عَهِدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: نَسِيَ مَا عَهِدَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ لَهُ عَزْمٌ مَا أَطَاعَ عَدُوَّهُ إِبْلِيسَ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَأْخُودًا بِالنَّسْيَانِ، وَإِنْ كَانَ النَّسْيَانُ الْيَوْمَ عَنَّا مَرْفُوعًا.

وَمَعْنَى: ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ أَيْ: مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَ مِنَ الشَّجَرَةِ؛ لِأَنَّهُ نَهَى عَنْهَا^(١).

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيْ: وَلَقَدْ وَصَيْنَا آدَمَ وَأَمَرْنَاهُ، وَعَهِدْنَا إِلَيْهِ عَهْدًا؛ لِيَقُومَ بِهِ، فَالْتَزَمَهُ، وَأَذَعَنَ لَهُ وَانْقَادَ، وَعَزَمَ عَلَى الْقِيَامِ بِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ نَسِيَ مَا أُمِرَ بِهِ، وَانْتَقَضَتْ عَزِيمَتُهُ الْمُحْكَمَةُ، فَجَرَى عَلَيْهِ مَا جَرَى، فَصَارَ عِبْرَةً لِدُرِّيَّتِهِ، وَصَارَتْ طَبَائِعُهُمْ مِثْلَ طَبِيعَتِهِ، نَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ فَخَطِئُوا، وَلَمْ يَثْبُتْ عَلَى الْعَزْمِ الْمُؤَكَّدِ، وَهُمْ كَذَلِكَ، وَبَادَرَ بِالتَّوْبَةِ مِنْ خَطِيئَتِهِ، وَأَقَرَّ بِهَا وَاعْتَرَفَ، فَغُفِرَتْ لَهُ، وَمَنْ يُشَابِهُ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ»^(٢).

وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ نَسِيًّا بِطَبْعِهِ فَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِتَعَهُدِ الْقُرْآنِ؛ حَتَّى لَا

(١) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» لِلْقُرْطُبِيِّ (١١ / ٢٦٧).

(٢) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص ٤٦٤).

يَتَفَلَّتْ مِنْ حَامِلِهِ وَقَارِيهِ.

فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ» ^(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِئْسَمَا لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتٍ وَكَيْتٍ، بَلْ هُوَ نُسْيٍ، وَاسْتَذَكِّرُوا الْقُرْآنَ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفْصِيًّا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ» ^(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

«بِئْسَ مَا لِأَحَدِهِمْ»: «مَا» نَكْرَةٌ مَوْصُوفَةٌ مُفَسَّرَةٌ لِفَاعِلٍ بِئْسَ، أَيُّ: بِئْسَ شَيْئًا. «أَنْ يَقُولَ»: مَخْصُوصٌ بِالذَّمِّ؛ أَيُّ: بِئْسَ شَيْئًا كَانَتْ لِلرَّجُلِ.

«كَيْتٌ وَكَيْتٌ»: كَلِمَتَانِ يُعْبَرُ بِهِمَا عَنِ الْجُمْلِ الْكَثِيرَةِ وَالْحَدِيثِ الطَّوِيلِ؛ وَسَبَبُ الذَّمِّ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَشْعَارِ بَعْدَ الْإِعْتِنَاءِ بِالْقُرْآنِ؛ إِذْ لَا يَقَعُ النِّسْيَانُ إِلَّا بِتَرْكِ التَّعَاهُدِ وَكَثْرَةِ الْغَفْلَةِ.

«بَلْ نُسْيٍ»: «بَلْ» إِضْرَابٌ عَنِ الْقَوْلِ بِنِسْبَةِ النِّسْيَانِ إِلَى النَّفْسِ، الْمُسَبَّبِ عَنْ عَدَمِ التَّعَاهُدِ، إِلَى الْقَوْلِ بِالْإِنْسَاءِ الَّذِي لَا صُنْعَ لَهُ فِيهِ؛ فَإِذَا نَسَبَهُ إِلَى نَفْسِهِ أَوْ هَمَّ أَنَّهُ أَنْفَرَدَ بِفِعْلِهِ، فَالَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ: أُنْسِيتُ أَوْ نُسِيتُ، مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ فِيهِمَا،

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٧٤٣)، وَمُسْلِمٌ (٧٨٩).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٧٤٥)، وَمُسْلِمٌ (٢٢٨).

أَيُّ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَنْسَانِي، فَيَنْسِبُ الْأَفْعَالَ إِلَى خَالِقِهَا لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِقْرَارِ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالْإِسْتِسْلَامِ لِقُدْرَةِ الرَّبُّوبِيَّةِ.

«وَاسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ»: السَّيْنُ لِلْمُبَالَغَةِ، أَيُّ: اظْلُبُوا مِنْ أَنْفُسِكُمْ مُذَاكَرَتَهُ وَالْمُحَافَظَةَ عَلَى قِرَائَتِهِ، وَالْوَاوُ فِي قَوْلِهِ «وَاسْتَذْكِرُوا»، عَطْفٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى عَلَى قَوْلِهِ: «بِئْسَ مَا لِأَحَدِكُمْ» أَيُّ: لَا تَقْصُرُوا فِي مُعَاهَدَتِهِ وَاسْتِذْكَارِهِ. «فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفْصِيًّا»: أَيُّ: تَفَلَّتًا.

«مِنَ النَّعَمِ»: أَيُّ: الْإِبِلِ، لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ؛ لِأَنَّ شَأْنَ الْإِبِلِ طَلَبُ التَّفَلَّتِ مَا أَمَكْنَهَا، فَمَتَى لَمْ يَتَعَاهَدَهَا صَاحِبُهَا بِرَبْطِهَا تَفَلَّتَتْ، فَكَذَلِكَ حَافِظُ الْقُرْآنِ إِذَا لَمْ يَتَعَاهَدْهُ تَفَلَّتَتْ، بَلْ هُوَ أَشَدُّ (١).

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِي هَذِهِ الْأَلْفَافِ فَوَائِدُ مِنْهَا: كَرَاهَةُ قَوْلِ: نَسِيتُ آيَةَ كَذَا، وَهِيَ كَرَاهَةُ تَنْزِيهِ، وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَا يُكْرَهُ قَوْلُ: أَنْسَيْتُهَا، وَإِنَّمَا نَهَى عَنْ نَسِيئِهَا لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ التَّسَاهُلَ فِيهَا وَالتَّغَافُلَ عَنْهَا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَنْتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا﴾ [طه: ١٢٦].

وَقَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَوَّلَى مَا يُتَأَوَّلُ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ أَنَّ مَعْنَاهُ ذَمُّ الْحَالِ، لَا ذَمُّ الْمَقَالِ، أَيُّ: بِئْسَتِ الْحَالَةُ حَالَةً مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ فَغَفَلَ عَنْهُ حَتَّى نَسِيَهُ.

(١) انْظُرْ: «اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ» تَعْلِيْقُ مُحَمَّدٍ فَوَّادٍ عَبْدَ الْبَاقِي (١/ ١٥٠).

وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ...»
إِلَى آخِرِهِ، فِيهِ الْحَثُّ عَلَى تَعَاهُدِ الْقُرْآنِ وَتِلَاوَتِهِ وَالْحَذَرِ مِنْ تَعْرِضِهِ لِلنِّسْيَانِ.

قَالَ الْقَاضِي: وَمَعْنَى «صَاحِبِ الْقُرْآنِ» أَي: الَّذِي أَلْفَهُ، وَالْمُصَاحِبَةُ: الْمُؤَالَفَةُ،
وَمِنْهُ فَلَانُ صَاحِبُ فَلَانٍ، وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ، وَأَصْحَابُ النَّارِ، وَأَصْحَابُ
الْحَدِيثِ، وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ، وَأَصْحَابُ الصُّفَّةِ، وَأَصْحَابُ إِبِلٍ وَغَنَمٍ، وَصَاحِبُ
كَنْزٍ، وَصَاحِبُ عِبَادَةٍ.

وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفْصِيًّا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ
النَّعْمِ بِعَقْلِهَا».

قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: التَّفْصِي: الْإِنْفِصَالُ، وَهُوَ بِمَعْنَى الرِّوَايَةِ الْآخَرَى: «أَشَدُّ
تَفْلُتًا».

«النَّعْمُ»: أَصْلُهَا: الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، وَالْمُرَادُ هُنَا الْإِبِلُ خَاصَّةً؛ لِأَنَّهَا الَّتِي
تُعْقَلُ، وَالْعَقْلُ بِضَمِّ الْعَيْنِ وَالْقَافِ، وَيَجُوزُ إِسْكَانُ الْقَافِ وَهُوَ كَنْظَائِرِهِ، وَهُوَ
جَمْعُ عِقَالٍ كَكِتَابٍ وَكُتُبٍ، وَالنَّعْمُ تَذَكَّرُ وَتَوَنَّنَتْ.

وَالْمُرَادُ مِنْ رِوَايَةِ الْبَاءِ -أَيِ مِنْ قَوْلِهِ: بِعُقْلِهَا- «مِنْ» كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:
﴿عَيْنَايَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ فِي مَعْنَاهَا^(١).

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ» (٦/ ٧٦).

وَقَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ ^{وَالْمُسْتَعْمَلُ} كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ»، أَي: مَعَ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، وَالْمُعَقَّلَةُ -بِضْمِ الْمِيمِ وَفَتْحِ الْعَيْنِ الْمُهِمْلَةِ وَتَشْدِيدِ الْقَافِ-، أَي: الْمَشْدُودَةُ بِالْعِقَالِ، وَهُوَ الْحَبْلُ الَّذِي يُشَدُّ فِي رُكْبَةِ الْبَعِيرِ، شَبَّهُ دَرَسَ الْقُرْآنِ وَاسْتِمْرَارَ تِلَاوَتِهِ بِرَبْطِ الْبَعِيرِ، الَّذِي يُخْشَى مِنْهُ الشَّرَادُ، فَمَا زَالَ التَّعَاهُدُ مَوْجُودًا فَالْحِفْظُ مَوْجُودٌ، كَمَا أَنَّ الْبَعِيرَ مَا دَامَ مَشْدُودًا بِالْعِقَالِ فَهُوَ مَحْفُوظٌ، وَخَصَّ الْإِبِلَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا أَشَدُّ الْحَيَوَانَ الْإِنْسِي نُفُورًا، وَفِي تَحْصِيلِهَا بَعْدَ اسْتِمْكَانِ نُفُورِهَا صُعُوبَةٌ.

قَوْلُهُ: «إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا»؛ أَي: اسْتَمَرَّ إِمْسَاكُهُ لَهَا.

قَوْلُهُ: «وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ»؛ أَي: انْفَلَتَتْ.

قَوْلُهُ: «بَلْ هُوَ نَسِيٌّ»: -بِضْمِ النُّونِ وَتَشْدِيدِ الْمُهِمْلَةِ الْمَكْسُورَةِ- قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: رَوَاهُ بَعْضُ رُوَاةِ مُسْلِمٍ مُخَفَّفًا، وَالتَّثْقِيلُ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ عُوقِبَ بِوُقُوعِ النِّسْيَانِ عَلَيْهِ لِتَفْرِيطِهِ فِي مُعَاهَدَتِهِ وَاسْتِدْكَارِهِ، قَالَ: وَمَعْنَى التَّخْفِيفِ أَنَّ الرَّجُلَ تَرَكَ غَيْرَ مُلْتَفِتٍ.

قَوْلُهُ: «اسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ»؛ أَي: وَاظِبُوا عَلَى تِلَاوَتِهِ وَاطْلُبُوا مِنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَذَاكِرَةَ بِهِ^(١).

(١) «فَتْحُ الْبَارِي» (٨ / ٦٩٧).

وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ مَعْدِنَ الْعِلْمِ وَأَصْلَهُ، كَانَ إِمَامَ الْعُلُومِ فِي ضَرُورَةِ تَعَاهُدِهِ،
وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ، فَكُلُّ الْعُلُومِ يَحْتَاجُ إِلَى التَّعَاهُدِ وَالْمُوَاطَّاةِ عَلَى الْإِسْتِذْكَارِ
بَعْضًا مِمَّا يَحْتَاجُهُ الْقُرْآنُ.

وَكَمَا يَعْزُضُ النَّسْيَانُ لِلْقُرْآنِ وَيَلْحُ عَلَيْهِ، فَكَذَلِكَ يَعْزُضُ لِلْعُلُومِ وَيَلْحُ
عَلَيْهَا، وَالْمُوَاطَّاةُ هِيَ الدَّوَاءُ الَّذِي لَا دَوَاءَ لِلنَّسْيَانِ مِثْلُهُ.

وَلِلذُّنُوبِ وَالْآثَامِ أَثَرٌ فَعَالٌ فِي الْحِفْظِ وَالنَّسْيَانِ، وَقَدْ يَنْسَى الْعَبْدُ الْعِلْمَ
بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ، نَسَّأَ اللَّهُ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٤].

قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ: «مَا مِنْ أَحَدٍ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ،
وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾
[الشورى: ٣٠] وَنَسْيَانُ الْقُرْآنِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ».

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَلَاءِ، قَالَ: كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى
غُلَامٍ نَصْرَانِيٍّ حَسَنِ الْوَجْهِ، فَمَرَّ بِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْبَلْخِي، فَقَالَ: أَيُّشِ وَقُوفُكَ؟
فَقُلْتُ: يَا عَمَّ، أَمَا تَرَى هَذِهِ الصُّورَةَ؟ كَيْفَ تَعَذَّبُ بِالنَّارِ؟ فَضَرَبَ بِيَدِهِ بَيْنَ كَتِفَيَّ،
وَقَالَ: لَتَجِدَنَّ غِبَّهَا وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ. قَالَ: فَوَجَدْتُ غِبَّهَا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، أَنَّ
أُنْسِيْتُ الْقُرْآنَ.

وَبِإِسْنَادٍ عَنْ أَبِي الْأَدْيَانِ قَالَ: كُنْتُ مَعَ أَسْتَاذِي وَأَبِي بَكْرٍ الدَّقَاقِ، فَمَرَّ
حَدَّثُ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ، فَرَأَيْتُ أَسْتَاذِي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ لَتَجِدَنَّ غِبَّهُ وَلَوْ

بَعْدَ حِينٍ. فَبَقِيَتْ عِشْرِينَ سَنَةً وَأَنَا أُرَاعِي فَمَا أَجِدُ ذَلِكَ الْغَيْبَ، فَنِمْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَأَنَا مُفَكِّرٌ فِيهِ، فَأَصْبَحْتُ وَقَدْ أَنْسِيتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ»^(١).

وَعِيبُ الْأَمْرِ وَمَعْبِئُهُ: عَاقِبَتُهُ وَآخِرُهُ.

وَكَمَا حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ تَعْرِيزِ الْقُرْآنِ لِلنِّسْيَانِ وَإِهْمَالِ تَعَاهِدِهِ حَتَّى يَذْهَبَ، رَغَبَ ﷺ فِي حِفْظِهِ وَإِتْقَانِ تِلَاوَتِهِ.

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ»^(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «السَّفَرَةُ»: جَمْعُ سَافِرٍ، كَكُتِبَةٍ وَكَاتِبٍ، وَالسَّافِرُ: الرَّسُولُ، وَالسَّفَرَةُ: الرُّسُلُ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْفَرُونَ إِلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِ اللَّهِ، وَقِيلَ: السَّفَرَةُ: الْكُتُبَةُ، وَ«الْبَرَّةُ»: الْمُطِيعُونَ، مِنَ الْبِرِّ وَهُوَ الطَّاعَةُ.

وَ«الْمَاهِرُ»: الْحَادِثُ الْكَامِلُ الْحَفِظُ الَّذِي لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَشُقُّ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ بِجَوْدَةٍ حِفْظِهِ وَإِتْقَانِهِ.

قَالَ الْقَاضِي: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى كَوْنِهِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ أَنَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مَنَازِلَ يَكُونُ فِيهَا رَفِيقًا لِلْمَلَائِكَةِ السَّفَرَةِ لِاتِّصَافِهِ بِصِفَتِهِمْ مِنْ حَمْلِ كِتَابِ اللَّهِ

(١) تَلَيْسُ إِبْلِيسَ لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (ص ٣١٠).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٦٥٣)، وَمُسْلِمٌ (٧٩٨).

تَعَالَى قَالَ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ أَنَّهُ عَامِلٌ بِعَمَلِهِمْ وَسَالِكٌ مَسْلَكَهُمْ، وَأَمَّا الَّذِي يَتَتَعْتَعُ فِيهِ فَهُوَ الَّذِي يَتَرَدَّدُ فِي تِلَاوَتِهِ لِضَعْفِ حِفْظِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ أَجْرٌ بِالْقِرَاءَةِ وَأَجْرٌ بِتَتَعْتُعِهِ فِي تِلَاوَتِهِ وَمَشَقَّتِهِ.

قَالَ الْقَاضِي -وغيره من العلماء-: وَلَيْسَ مَعْنَاهُ الَّذِي يَتَتَعْتَعُ عَلَيْهِ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ أَكْثَرُ مِنَ الْمَاهِرِ بِهِ بَلِ الْمَاهِرُ أَفْضَلُ وَأَكْثَرُ أَجْرًا لِأَنَّهُ مَعَ السَّفَرَةِ وَلَهُ أَجُورٌ كَثِيرَةٌ وَلَمْ يَذْكُرْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ لِغَيْرِهِ وَكَيْفَ يَلْحَقُ بِهِ مَنْ لَمْ يَعْتَنِ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَحِفْظِهِ وَإِتْقَانِهِ وَكَثْرَةِ تِلَاوَتِهِ وَرِوَايَتِهِ كَاعْتِنَائِهِ حَتَّى مَهَرَ فِيهِ؟! (١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا» (٢).

قَالَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَعْنِي: أَنَّهُ يَقْرَأُ كَمَا كَانَ يَقْرَأُ فِي الدُّنْيَا وَيُعْطَى بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةٌ» (٣).

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ» (١١ / ٣٠).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٦٧٩٩)، وَقَالَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ شَاكِرٌ: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَأَبُو دَاوُدَ (١٤٦٤)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (١ / ٤٠٣)، وَفِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٧٩٧٨)، وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٩١٤)، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَابْنُ مَاجَهَ (٣٧٨٠).

(٣) «عَارِضَةُ الْأَخْوَذِيِّ» (١١ / ٣٠).

لَقَدْ حَذَرَ الْأَئِمَّةُ -رَحِمَهُمُ اللَّهُ- مِنْ إِهْمَالِ الْمَذَاكِرَةِ حَتَّى يُنْسَى الْعِلْمُ، وَنَبَّهُوا عَلَى أَنَّ مِنْ أَشَدِّ غَوَائِلِ الْعِلْمِ النِّسْيَانُ، تَحْذِيرًا مِنْهُ وَتَنْبِيْهَا عَلَيْهِ.

أَخْرَجَ الدَّارِمِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (١٥٨/١) عَنْ حَكِيمِ بْنِ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ آفَةً، وَآفَةُ الْعِلْمِ النِّسْيَانُ».

وَأَخْرَجَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ: عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: «إِنَّمَا يُذْهَبُ الْعِلْمُ النِّسْيَانُ، وَتَرُكُ الْمَذَاكِرَةِ».

وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: إِنَّ إِحْيَاءَ الْحَدِيثِ مَذَاكِرَتُهُ فَتَذَاكُرُوا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، كَمْ مِنْ حَدِيثٍ أَحْيَيْتَهُ فِي صَدْرِي قَدْ مَاتَ.

وَعَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: إِنَّ لِلْعِلْمِ غَوَائِلَ، فَمِنْ غَوَائِلِهِ ^(١) أَنْ يُتْرَكَ الْعَالِمُ حَتَّى يُذْهَبَ بِعِلْمِهِ وَمِنْ غَوَائِلِهِ النِّسْيَانُ، وَمِنْ غَوَائِلِهِ الْكَذِبُ فِيهِ، وَهُوَ شَرُّ غَوَائِلِهِ. وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: غَائِلَةُ الْعِلْمِ النِّسْيَانُ وَتَرُكُ الْمَذَاكِرَةِ ^(٢).

وَتَكَرُّيرُ الْمُحْفُوظِ عَلَى الْقَلْبِ أَدْعَى لِتَشْيِئِهِ، وَمَأْمَنَةٌ مِنْ ذَهَابِهِ، وَهَذَا دَأْبُ الْعُلَمَاءِ مِنْ قَبْلُ، لَا يَتَوَانَوْنَ فِيهِ، وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ عَنْهُ.

(١) قَالَ الْكِسَائِيُّ: الْغَوَائِلُ: الدَّوَاهِي، وَالْغِيلَةُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: إِيْصَالُ الشَّرِّ إِلَيْهِ وَالْقَتْلُ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَشْعُرُ.

(٢) «جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ» (١٠٧/١).

أَخْرَجَ الْخَطِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى قَالَ: «قِيلَ لِلْأَصْمَعِيِّ: كَيْفَ حَفِظْتَ وَنَسِيَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: دَرَسْتُ وَتَرَكُوا.

وَعَنْ سُفْيَانَ قَالَ: اجْعَلُوا الْحَدِيثَ حَدِيثَ أَنْفُسِكُمْ، وَفِكَرَ قُلُوبِكُمْ تَحْفَظُوهُ.
وَعَنِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: وُضِعَ طَسْتُ بَيْنَ يَدَيِ ابْنِ شِهَابٍ، فَتَذَكَّرَ حَدِيثًا، فَلَمْ تَزَلْ يَدُهُ فِي الطَّسْتِ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، حَتَّى صَحَّحَهُ.

وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَرَاغِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ مَقْبَرَةً بِشُتْرٍ فَسَمِعْتُ صَائِحًا يَصِيحُ وَالْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَالْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ سَاعَةً طَوِيلَةً فَكُنْتُ أَطْلُبُ الصَّوْتِ إِلَى أَنْ رَأَيْتُ ابْنَ زُهَيْرٍ وَهُوَ يَدْرُسُ مَعَ نَفْسِهِ مِنْ حِفْظِهِ حَدِيثَ الْأَعْمَشِ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْمَدِينِيِّ قَالَ: تَذَاكَرَ وَكَيْعٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَلَمْ يَزَالَا حَتَّى أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ أَذَانَ الصُّبْحِ.

وَعَنِ ابْنِ شِهَابٍ: أَنَّهُ كَانَ يَسْمَعُ الْعِلْمَ مِنْ عُرْوَةَ وَغَيْرِهِ، فَيَأْتِي إِلَى جَارِيَةٍ لَهُ - وَهِيَ نَائِمَةٌ - فَيُوقِظُهَا، فَيَقُولُ: اسْمَعِي، حَدَّثَنِي فُلَانٌ كَذَا، وَفُلَانٌ كَذَا، فَتَقُولُ: مَا لِي وَلِهَذَا الْحَدِيثُ؟! فَيَقُولُ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ لَا تَنْتَفِعِينَ بِهِ، وَلَكِنْ سَمِعْتُهُ الْآنَ فَأَرَدْتُ أَنْ أَسْتَذْكِرَهُ»^(١).

(١) «الْجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّائِي وَأَدَابِ السَّامِعِ» (٢/ ٢٦٦).

وَالْأَيُّمَةُ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - كَانُوا أَهْلَ حِفْظٍ وَمَعْرِفَةٍ، وَإِنَّمَا امْتَأَزُوا عَلَى النَّاسِ بِمَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ يَقِينٍ وَتَوَكُّلٍ وَصِدْقٍ، وَبِمَا جَعَلَ فِي عُقُولِهِمْ مِنْ ذِكَاةٍ وَنَفَازٍ وَحِفْظٍ، فَمَنْ أَرَادَ الْقَصَّ عَلَى آثَارِهِمْ فَعَلَيْهِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي نَفْيِ النُّسْيَانِ عَنْهُ بِالضَّرَاعَةِ إِلَى اللَّهِ، وَأَكْلِ الْحَلَالِ، وَتَقْلِيلِ الْمَطَاعِمِ وَالْهُمُومِ، وَمُجَانَبَةِ الْآثَامِ وَالذُّنُوبِ، وَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْقَصْدِ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ.

وَهَذَا مِثْلُ يُضْرَبُ فِي نِعْمَةِ الْحِفْظِ وَمِنَّةِ الْفَهْمِ، وَهُوَ الْإِمَامُ الْمُقَدَّمُ الْحَافِظُ الْعَلَمُ، الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِذَاكِرَةِ لَا قِطْعَةٍ، وَقَلْبِ حَافِظٍ، وَأُذُنٍ وَاعِيَةٍ.

رَوَى الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَدِيِّ الْحَافِظِ قَالَ: «سَمِعْتُ عِدَّةً مِنْ مَشَائِخِ بَغْدَادَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيَّ قَدِمَ بَغْدَادَ، فَسَمِعَ بِهِ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ، فَاجْتَمَعُوا وَأَرَادُوا امْتِحَانَهُ حِفْظُهُ، فَعَمَدُوا إِلَى مِئَةِ حَدِيثٍ فَقَلَبُوا مُتُونَهَا وَأَسَانِيدَهَا، وَجَعَلُوا مِثْلَ هَذَا الْإِسْنَادِ لِإِسْنَادٍ آخَرَ، وَإِسْنَادَ هَذَا الْمِثْلِ لِمِثْلٍ آخَرَ، وَدَفَعُوهَا إِلَى عَشْرَةِ أَنْفُسٍ، لِكُلِّ رَجُلٍ عَشْرَةُ أَحَادِيثَ، وَأَمَرُوهُمْ إِذَا حَضَرُوا الْمَجْلِسَ أَنْ يُلْقُوا ذَلِكَ عَلَى الْبُخَارِيِّ، وَأَخَذُوا عَلَيْهِ الْمَوْعِدَ لِلْمَجْلِسِ فَحَضَرُوا وَحَضَرَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْغُرَبَاءِ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْبَغْدَادِيِّينَ.

فَلَمَّا اطْمَأَنَّ الْمَجْلِسُ بِأَهْلِهِ انْتَدَبَ رَجُلٌ مِنَ الْعَشْرَةِ فَسَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ مِنْ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ، فَقَالَ الْبُخَارِيُّ: لَا أَعْرِفُهُ، فَمَا زَالَ يُلْقِي عَلَيْهِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى فَرَغَ، وَالْبُخَارِيُّ يَقُولُ: لَا أَعْرِفُهُ، وَكَانَ الْعُلَمَاءُ مِمَّنْ حَضَرَ الْمَجْلِسَ يَلْتَفِتُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَيَقُولُونَ: فَهَمَ الرَّجُلُ، وَمَنْ كَانَ لَمْ يَدْرِ الْقِصَّةَ قَضَى عَلَى الْبُخَارِيِّ بِالْعَجْزِ وَالتَّقْصِيرِ وَقِلَّةِ الْحِفْظِ.

ثُمَّ انْتَدَبَ رَجُلٌ مِنَ الْعَشْرَةِ -أَيْضًا- فَسَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ مِنْ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ الْمَقْلُوبَةِ فَقَالَ: لَا أَعْرِفُهُ، فَسَأَلَهُ عَنْ آخَرَ، فَقَالَ: لَا أَعْرِفُهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُلْقِي عَلَيْهِ وَاحِدًا وَاحِدًا حَتَّى فَرَغَ مِنْ عَشْرَتِهِ، وَالْبُخَارِيُّ يَقُولُ: لَا أَعْرِفُهُ.

ثُمَّ انْتَدَبَ الثَّالِثُ وَالرَّابِعُ إِلَى تَمَامِ الْعَشْرَةِ، حَتَّى فَرَغُوا كُلُّهُمْ مِنْ إِقَاءِ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ الْمَقْلُوبَةِ، وَالْبُخَارِيُّ لَا يَزِيدُهُمْ عَلَى: لَا أَعْرِفُهُ.

فَلَمَّا عَرَفَ أَنَّهُمْ قَدْ فَرَغُوا التَّفَتَ إِلَى الْأَوَّلِ فَقَالَ: أَمَّا حَدِيثُكَ الْأَوَّلُ، فَقُلْتُ: كَذَا، وَصَوَابُهُ كَذَا، وَحَدِيثُكَ الثَّانِي: كَذَا، وَصَوَابُهُ: كَذَا، وَالثَّالِثُ وَالرَّابِعُ عَلَى الْوَلَاءِ حَتَّى أَتَى عَلَى تَمَامِ الْعَشْرَةِ فَرَدَّ كُلُّ مَتْنٍ إِلَى إِسْنَادِهِ وَكُلَّ إِسْنَادٍ إِلَى مَتْنِهِ، وَفَعَلَ بِالْآخَرِينَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَأَقَرَّ النَّاسُ لَهُ بِالْحِفْظِ وَأَذَعْنُوا لَهُ بِالْفَضْلِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: قُلْتُ: هُنَا يُخْضَعُ لِلْبُخَارِيِّ، فَمَا الْعَجَبُ مِنْ رَدِّهِ الْخَطَأَ إِلَى الصَّوَابِ، فَإِنَّهُ كَانَ حَافِظًا، بَلِ الْعَجَبُ مِنْ حِفْظِهِ لِلْخَطَأِ عَلَى تَرْتِيبِ مَا أَلْقَوْهُ عَلَيْهِ مِنْ مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ.

وَقَالَ أَبُو الْأَزْهَرِ: كَانَ بِسَمَرْقَنْدَ أَرْبَعُمِئَةِ مُحَدِّثٍ فَتَجَمَّعُوا وَأَحْبَبُوا أَنْ يُغَالِطُوا مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيَّ، فَأَدْخَلُوا إِسْنَادَ الشَّامِ فِي إِسْنَادِ الْعِرَاقِ، وَإِسْنَادِ الْعِرَاقِ فِي إِسْنَادِ الشَّامِ، وَإِسْنَادَ الْحَرَمِ فِي إِسْنَادِ الْيَمَنِ، فَمَا اسْتَطَاعُوا مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَتَعَلَّقُوا عَلَيْهِ بِسَقْطَةٍ^(١).

وَقَدْ حَكَى عَنْهُ رِفَاقُهُ فِي الطَّلَبِ فِي حِدَّةِ الذَّهْنِ وَسَيْلَانِهِ عَجَبًا، حَدَّثَ حَاشِدُ ابْنِ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: «كَانَ الْبُخَارِيُّ يَخْتَلِفُ مَعَنَا إِلَى مَشَايخِ الْبَصْرَةِ وَهُوَ غُلَامٌ، فَلَا يَكْتُبُ حَتَّى أَتَى عَلَى ذَلِكَ أَيَّامٌ فَلَمَّنَاهُ بَعْدَ سِتَّةَ عَشَرَ يَوْمًا فَقَالَ: قَدْ أَكْثَرْتُمْ عَلَيَّ، فَاغْرَضُوا عَلَيَّ مَا كُتِبْتُمْ، فَأَخْرَجْنَاهُ فَزَادَ عَلَى خَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفٍ حَدِيثٍ، فَقَرَأَهَا كُلَّهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، حَتَّى جَعَلْنَا نُحْكِمُ كُتُبَنَا مِنْ حِفْظِهِ»^(٢).

لَقَدْ خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى أُمَّتَنَا بِحِفْظِ الْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ، وَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَنَا يَقْرَأُونَ كُتُبَهُمْ مِنَ الصُّحُفِ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْحِفْظِ، فَلَمَّا جَاءَ عَزِيزٌ وَتَلَا التَّوْرَةَ مِنْ حِفْظِهِ قَالُوا: هَذَا ابْنُ اللَّهِ!!

فَكَيْفَ نَقُومُ بِشُكْرِ مَنْ خَوَّلَنَا أَنْ ابْنَ سَبْعِ سِنِينَ مِمَّا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، ثُمَّ لَيْسَ فِي الْأُمَمِ مَنْ يُنْقِلُ عَنْ نَبِيِّهِ أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ عَلَى وَجْهِ يَحْصُلُ بِهِ الثِّقَةُ إِلَّا نَحْنُ، فَإِنَّهُ يَرَوِي الْحَدِيثَ مِمَّا خَالَفَ عَنْ سَالِفٍ، وَيَنْظُرُونَ فِي ثِقَةِ الرَّائِي إِلَى أَنْ

(١) «هَدْيُ السَّارِي» لِابْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ (ص ٥٠١).

(٢) «هَدْيُ السَّارِي» لِابْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ (ص ٥٠٢).

يَصِلَ الْأَمْرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَسَائِرِ الْأُمَمِ يَرَوْنَ مَا يَذْكُرُونَهُ عَنْ صَحِيفَةٍ لَا يُدْرَى مَنْ كَتَبَهَا، وَلَا يُعْرَفُ مَنْ نَقَلَهَا.

وَهَذِهِ الْمِنْحَةُ الْعَظِيمَةُ نَفْتَقِرُ إِلَى حِفْظِهَا، وَحِفْظُهَا بِدَوَامِ الدِّرَاسَةِ؛ لِيَبْقَى الْمَحْفُوظُ، وَقَدْ كَانَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ سَلَفِنَا يَحْفَظُونَ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَمْرِ، فَالْأَمْرُ إِلَى أَقْوَامٍ يَفْرُونَ مِنَ الْإِعَادَةِ مَيْلًا إِلَى الْكَسَلِ، فَإِذَا احتَاجَ أَحَدُهُمْ إِلَى مَحْفُوظٍ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ» (١).

جامعة

مَنْهَاجُ النَّبِيِّ

www.menhaj-un.com

(١) انْظُرْ: «الْحَثُّ عَلَى حِفْظِ الْعِلْمِ» لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (ص ٢٣).

١٠- الْغُرُورُ

«الْغُرُورُ: هُوَ سُكُونُ النَّفْسِ إِلَى مَا يُوَافِقُ الْهَوَى، وَيَمِيلُ إِلَيْهِ الطَّبْعُ عَنْ شُبْهَةٍ وَخُدْعَةٍ مِنَ الشَّيْطَانِ.

فَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ عَلَى خَيْرٍ، إِمَّا فِي الْعَاجِلِ أَوْ فِي الْآجِلِ، عَنْ شُبْهَةٍ فَاسِدَةٍ فَهُوَ مَغْرُورٌ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِأَنْفُسِهِمُ الْخَيْرَ وَهُمْ مُخْطِئُونَ فِيهِ، فَأَكْثَرُ النَّاسِ - إِذَنْ - مَغْرُورُونَ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَصْنَافُ غُرُورِهِمْ، وَاخْتَلَفَتْ دَرَجَاتُهُمْ، حَتَّى كَانَ غُرُورُ بَعْضِهِمْ أَظْهَرَ وَأَشَدَّ مِنْ بَعْضٍ»^(١).

وَالْغُرُورُ آفَةٌ مِنْ آفَاتِ النَّفْسِ فَلَمَّا يُمَكِّنُ فَضْلُهَا فَضْلاً وَاضِحاً فِي حَالَةٍ بَعَيْنَهَا مِنْ حَالَاتِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، بَلْ إِنَّ آفَةَ الْغُرُورِ لَا تَنْفَكُ عَنِ الْكِبَرِ وَالْعُجْبِ وَالرِّيَاءِ وَالسُّمُوعَةِ بِحَالٍ، بَلْ كُلُّ ذَلِكَ كَالْأَصْلِ الَّذِي تَتَفَرَّعُ مِنْهُ، وَكَالتُّرْبَةِ الَّتِي تَنْبُتُ فِيهَا، وَكَالْمَاءِ الْكَدِرِ الَّذِي يَرْوِيهَا.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ نُبَّةَ عَلَى آفَةِ الْغُرُورِ الَّتِي تَعْرِضُ لِأَهْلِ الْعِلْمِ خَاصَّةً؛ لِأَنَّ لِابْلِيسَ مِنْ خَفِيِّ التَّلْيِيسِ مَا يَغْمُضُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، إِلَّا أَنَّ الْأَئِمَّةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَهْتَكُونَ عَلَى اللَّعِينِ أَسْتَارَهُ، وَيَهْدُمُونَ عَلَيْهِ أَسْوَارَهُ، وَإِذَا مَا هُوَ حَرِيصٌ

(١) «تَهْذِيبُ الْإِحْيَاءِ» لِعَبْدِ السَّلَامِ هَارُونُ (١٤٦/٢).

عَلَى إِخْفَائِهِ سَافِرٌ مُنْكَشِفٌ.

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ أَقْوَامًا عَلَتْ هِمَمُهُمْ فَحَصَلُوا عُلُومَ الشَّرْعِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَالْأَدَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَأَتَاهُمْ إِبْلِيسُ، بِخَفِيِّ التَّلْيِسِ، فَأَرَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ بِعَيْنٍ عَظِيمَةٍ لَمَّا نَالُوا وَأَفَادُوا غَيْرَهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَفْزُهُ لَطُولِ عَنَائِهِ فِي الطَّلَبِ، فَحَسَّنَ لَهُ اللَّذَاتِ، وَقَالَ لَهُ: إِلَى مَتَى هَذَا التَّعَبُ؟ أَرِحْ جَوَارِحَكَ مِنْ كُلِّ التَّكَالِيفِ وَأَفْسَحْ لِنَفْسِكَ فِي مُسْتَهَاهَا، فَإِنْ وَقَعَتْ فِي زَلَّةٍ فَالْعِلْمُ يَدْفَعُ عَنْكَ الْعُقُوبَةَ، وَأُورِدَ عَلَيْهِ فَضْلُ الْعُلَمَاءِ، فَإِنْ خُذِلَ هَذَا الْعَبْدُ وَقَبِلَ هَذَا التَّلْيِسَ يَهْلِكُ.

وَقَدْ لَبَسَ إِبْلِيسُ عَلَى أَقْوَامٍ مِنَ الْمُحْكِمِينَ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، فَحَسَّنَ لَهُمُ الْكِبَرَ بِالْعِلْمِ، وَالْحَسَدَ لِلنَّظِيرِ، وَالرِّيَاءَ لَطَلَبِ الرِّيَاسَةِ، فَتَارَةً يُرِيهِمْ أَنَّ هَذَا كَالْحَقِّ الْوَاجِبِ لَهُمْ، وَتَارَةً يَقْوِي حُبَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ فَلَا يَتْرُكُونَهُ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ خَطَأٌ.

وَقَدْ يَتَخَلَّصُ الْعُلَمَاءُ الْكَامِلُونَ مِنْ تَلْيِسَاتِ إِبْلِيسَ الظَّاهِرَةِ فَيَأْتِيهِمْ بِخَفِيِّ مِنْ تَلْيِسِهِ، بِأَنْ يَقُولَ لَهُ: مَا لَقِيتُ مِثْلَكَ، مَا أَعْرَفَكَ بِمَدَاخِلِي وَمَخَارِجِي! فَإِنْ سَكَنَ إِلَى هَذَا هَلَكَ بِالْعُجْبِ، وَإِنْ سَلِمَ مِنَ الْمُسَالَمَةِ لَهُ سَلِمَ.

وَقَدْ قَالَ السُّرِّي السَّقَطِيُّ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ بُسْتَانًا فِيهِ مِنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ الْأَشْجَارِ، عَلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَطْيَارِ فَخَاطَبَهُ كُلُّ

طَائِرٍ بُلْغَتِهِ، وَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا وَلِيَّ اللَّهِ، فَسَكَتَتْ نَفْسُهُ إِلَى ذَلِكَ، كَانَ فِي أَيْدِيهَا أَسِيرًا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ الْهَادِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»^(١).

إِنَّ إِمَامَ الْمَغْرُورِينَ وَقَائِدَهُمْ وَحَامِلَ لَوَائِهِمْ إِلَى النَّارِ، هُوَ إِبْلِيسُ، وَقَدْ غَرَّتِ اللَّعِينُ نَفْسُهُ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ فَتَأَبَّى عَلَى السُّجُودِ لِآدَمَ إِذْ كَانَ مَخْلُوقًا مِنْ طِينٍ، فَقَاسَ قِيَاسًا فَاسِدًا، وَاسْتَتَجَّ نَتِيجَةً فَاسِدَةً؛ فَتَمَرَّدَ عَلَى الْأَمْرِ وَعَصَى رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُ إِبْلِيسَ -لَعَنَهُ اللَّهُ-: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ مِنَ الْعُذْرِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الذَّنْبِ، كَأَنَّهُ امْتَنَعَ مِنَ الطَّاعَةِ لِأَنَّهُ لَا يُؤْمَرُ الْفَاضِلُ بِالسُّجُودِ لِلْمَفْضُولِ، يَعْنِي -لَعَنَهُ اللَّهُ-: وَأَنَا خَيْرٌ مِنْهُ فَكَيْفَ تَأْمُرُنِي بِالسُّجُودِ لَهُ؟! ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ بِأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ نَارٍ، وَالنَّارُ أَشْرَفُ مِمَّا خَلَقْتَهُ مِنْهُ وَهُوَ الطِّينُ، فَنَظَرَ اللَّعِينُ إِلَى أَصْلِ الْعُنْصُرِ، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى التَّشْرِيفِ وَالتَّعْظِيمِ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَقَاسَ اللَّعِينُ قِيَاسًا فَاسِدًا فِي مُقَابَلَةِ نَصِّ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَقْعُوا لَهُ سَجْدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، فَشَدَّ مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ لِتَرْكِ السُّجُودِ، فَلِهَذَا أَبْلَسَ مِنَ الرَّحْمَةِ، أَيُّ: أَيْسَ مِنَ الرَّحْمَةِ، فَأَخْطَأَ قَبْحَهُ اللَّهُ فِي قِيَاسِهِ، وَدَعَاوَاهُ أَنَّ النَّارَ أَشْرَفُ مِنَ الطِّينِ.

أَيْضًا، فَإِنَّ الطِّينَ مِنْ شَأْنِهِ الرَّرَانَةُ وَالْحِلْمُ وَالْأَنَاءَةُ وَالتَّثَبُّتُ، وَالطِّينُ مَحَلُّ

(١) «تَلِيسُ إِبْلِيسَ» لِابْنِ الْجَوَزِيِّ (ص ١٢٩).

النَّبَاتِ وَالنُّمُوَّ وَالزِّيَادَةَ وَالْإِصْلَاحَ، وَالنَّارُ مِنْ شَأْنِهَا الْإِحْرَاقُ وَالطَّيْشُ وَالسَّرْعَةُ، وَلِهَذَا خَانَ إِبْلِيسُ عُنْصَرَهُ، وَنَفَعَ آدَمَ عُنْصَرَهُ بِالرُّجُوعِ وَالْإِنَابَةِ وَالْإِسْتِكَانَةِ وَالْإِنْقِيَادَ وَالْإِسْتِسْلَامَ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَالْإِعْتِرَافِ وَطَلَبِ التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ» (١).

وَقَدْ حَذَّرَ اللَّهُ عِبَادَهُ أَنْ يَغْرَهُمُ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ، فَيَقُودَهُمْ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورِيكُمْ وَأَخْشَوْنَ يَوْمًا لَا يُجْزَى وَالِدَعْنُ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورِيكُمْ﴾، يَعْنِي: الْكَافِرُ وَالْمُؤْمِنُ، أَيُّ: خَافُوهُ وَوَحِّدُوهُ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أَيُّ: الْبَعْثُ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾، أَيُّ: لَا تَخْدَعَنَّكُمْ ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بِزِينَتِهَا وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ فَتَكِلُوا عَلَيْهَا وَتَرْكُونَهَا إِلَيْهَا وَتَتْرَكُوا الْعَمَلَ لِلْآخِرَةِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾، هُوَ الشَّيْطَانُ فِي قَوْلِ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَغُرُّ الْخَلْقَ وَيُمْنِيهِمُ الدُّنْيَا وَيُلْهِيَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ، وَفِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ﴾ [النساء: ١٢]» (٢).

وَقَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ بِتَقْوَاهُ، الَّتِي هِيَ امْتِثَالُ أَوْامِرِهِ، وَتَرْكُ زَوَاجِرِهِ، وَيَسْتَلْفِتُهُمْ لِحَشْيَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الْيَوْمِ الشَّدِيدِ، الَّذِي فِيهِ كُلُّ أَحَدٍ

(١) «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» لِابْنِ كَثِيرٍ (٢/ ٢٠٣).

(٢) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» لِلْقُرْطُبِيِّ (١٤/ ٨٢).

لَا يُهَمُّهُ إِلَّا نَفْسُهُ فَ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، لَا يَزِيدُ فِي حَسَنَاتِهِ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ، قَدْ تَمَّ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ عَمَلُهُ، وَتَحَقَّقَ عَلَيْهِ جَزَاؤُهُ، فَلَفَتَ النَّظَرَ فِي هَذَا لِهَذَا الْيَوْمِ الْمَهِيلِ، مِمَّا يُقَوِّي الْعَبْدَ وَيُسَهِّلُ عَلَيْهِ تَقَوِّيَ اللَّهِ، وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِالْعِبَادِ، يَأْمُرُهُمْ بِتَقْوَاهُ الَّتِي فِيهَا سَعَادَتُهُمْ، وَيَعِدُّهُمْ عَلَيْهَا الثَّوَابَ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنَ الْعِقَابِ، وَيُزَعِّجُهُمْ إِلَيْهِ بِالْمَوَاعِظِ وَالْمُخَوِّفَاتِ.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فَلَا تَمْتَرُوا فِيهِ، وَلَا تَعْمَلُوا عَمَلٍ غَيْرِ الْمُصَدِّقِ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بِزِينَتِهَا وَزَخَارِفِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْفِتَنِ وَالْمِحَنِ.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الَّذِي هُوَ الشَّيْطَانُ، الَّذِي مَا زَالَ يَخْدَعُ الْإِنْسَانَ وَلَا يَغْفُلُ عَنْهُ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، فَإِنَّ لِلَّهِ عَلَى عِبَادِهِ حَقًّا، وَقَدْ وَعَدَهُمْ مَوْعِدًا يُجَازِيهِمْ فِيهِ بِأَعْمَالِهِمْ، وَهَلْ وَفَّوْا حَقَّهُ أَمْ قَصَّروا فِيهِ؟

هَذَا أَمْرٌ يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَهْتَمَّ بِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ، وَرَأْسَ مَالِ تِجَارَتِهِ، الَّتِي يَسْعَى إِلَيْهَا، وَمِنْ أَعْظَمِ الْعَوَائِقِ عَنْهُ وَالْقَوَاعِظِ دُونَهُ، الدُّنْيَا الْفِتَانَةُ، وَالشَّيْطَانُ الْمُوسَّوسُ الْمُسَوِّلُ، فَهِيَ تَعَالَى عِبَادَهُ، أَنْ تَغُرَّهُمُ الدُّنْيَا، أَوْ يَغُرَّهُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠] (١).

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص ٦٠١).

وَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ صِفَةِ لَازِمَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْمُنافِقِينَ، وَهِيَ الْغُرُورُ، وَكَيْفَ تَغْرِهُمُ الْأَمَانِيُّ وَالْأَبَاطِيلُ فِي الدُّنْيَا؛ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ غَافِلُونَ؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْدُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمُ اللَّهُ الْغُرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْدُونَهُمْ﴾ أَيُّ: يُنَادِي الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾، فِي الدُّنْيَا؟ يَعْنِي: نُصَلِّيْ مِثْلَمَا تُصَلُّونَ، وَنَغْزُو مِثْلَمَا تَغْزُونَ، وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا تَفْعَلُونَ؟ ﴿قَالُوا بَلَى﴾، أَيُّ: يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿بَلَى﴾، قَدْ كُنْتُمْ مَعَنَا فِي الظَّاهِرِ، ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، أَيُّ: اسْتَعْمَلْتُمُوهَا فِي الْفِتْنَةِ.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾، أَيُّ: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالْمَوْتِ، وَبِالْمُؤْمِنِينَ الدَّوَائِرَ، وَقِيلَ: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بِالتَّوْبَةِ، ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أَيُّ: شَكَّكْتُمْ فِي التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ، ﴿وَعَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ﴾، أَيُّ: الْأَبَاطِيلُ، وَقِيلَ: طُولُ الْأَمَلِ، وَقِيلَ: هُوَ مَا كَانُوا يَتَمَنَّوْنَهُ مِنْ ضَعْفِ الْمُؤْمِنِينَ وَنُزُولِ الدَّوَائِرِ بِهِمْ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْأَمَانِيُّ هُنَا: خُدْعُ الشَّيْطَانِ، وَقِيلَ: الدُّنْيَا، قَالَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَقَالَ أَبُو سِنَانٍ: هُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿سَيَغْفِرُ لَنَا﴾، وَقَالَ بِلَالُ بْنُ سَعْدٍ: ذِكْرُكَ حَسَنَاتِكَ وَنَسْيَانُكَ سَيِّئَاتِكَ غَرَّةٌ ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، يَعْنِي: الْمَوْتُ. وَقِيلَ: نُصْرَةُ نَبِيِّهِ ﷺ، وَقَالَ قَتَادَةُ: إِقَاؤُهُمْ فِي النَّارِ، ﴿وَعَزَّكُمُ﴾ أَيُّ: خَدَعَكُمْ، ﴿بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾، أَيُّ: الشَّيْطَانُ، قَالَهُ عِكْرِمَةُ، وَقِيلَ: الدُّنْيَا، قَالَهُ الضَّحَّاكُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ لِلْبَاقِي بِالْمَاضِي اعْتِبَارًا، وَلِلْآخِرِ بِالْأَوَّلِ مُزْدَجَرًا،
وَالسَّعِيدُ مَنْ لَا يَغْتَرُّ بِالطَّمَعِ، وَلَا يَرْكُنُ إِلَى الْخُدَعِ، وَمَنْ ذَكَرَ الْمَنِيَّةَ نَسِيَ الْأُمْنِيَّةَ،
وَمَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ نَسِيَ الْعَمَلَ، وَغَفَلَ عَنِ الْأَجَلِ.

وَجَاءَ ﴿الْعُرُورُ﴾. عَلَى لَفْظِ الْمُبَالَغَةِ لِلْكَثَرَةِ^(١).

وَلَوْ أَنَّ قَاعِدَةَ الْعَمَلِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ هِيَ: أَنَّ الْعِبْرَةَ لَيْسَتْ بِالْعَمَلِ وَإِنَّمَا
بِتَصْفِيَةِ الْعَمَلِ مِنَ الشَّوَائِبِ، مِنْ هَدْيِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكْمَلُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾
[الملك: ٢].

لَوْ أَنَّ قَاعِدَةَ الْعَمَلِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ كَانَتْ هَذِهِ - لَقَضِيَ الْأَمْرُ، وَلَكِنَّهَا لَمْ
تَكُنْ كَذَلِكَ دَائِمًا، فَلَيْتَهَا تَكُونُ... لَيْتَهَا...

غَيْرَ أَنَّ أَهْلَ التَّحْقِيقِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ كَانُوا عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ سَائِرِينَ، وَهَذَا
إِمَامٌ مِنْ أئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَجْمَعِينَ - بَلَغَ فِي الْإِمَامَةِ مَبْلَغًا لَا مَطْمَعَ
لِأَحَدٍ بَعْدَهُ فِي مِثْلِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ وَيَخْشَى.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ قَالَ: «سَمِعْتُ أَبَا زُرْعَةَ يَقُولُ: كَانَ أَبُوكَ
يَحْفَظُ أَلْفَ حَدِيثٍ، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ قَالَ: ذَاكَرْتُهُ فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ».

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعَزَّ هَذَا الدِّينَ بِأَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ يَوْمَ

(١) «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» (١٧/٢٣٧).

الرَّدَّة، وبِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ يَوْمَ الْمِحْنَةِ».

وَمَعَ مَا كَانَ أَحْمَدُ فِيهِ مِنَ الْإِمَامَةِ فِي الْحَدِيثِ وَالْحِفْظِ وَالْفِقْهِ وَالْوَرَعِ
وَالزُّهْدِ وَالصَّبْرِ، كَانَ خَائِفًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ.

قَالَ الْخَلَّالُ: «أَخْبَرَنَا الْمُرُوزِيُّ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: مَا أَكْثَرَ الدَّاعِي لَكَ!
قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَكُونَ اسْتِدْرَاجًا، بِأَيِّ شَيْءٍ هَذَا؟!».

قَالَ -أَي: الْمُرُوزِيُّ-: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: إِنَّ رَجُلًا قَدِمَ مِنْ طَرُوسَ
فَقَالَ لِي: إِنَّا كُنَّا فِي بِلَادِ الرُّومِ فِي الْغَزْوِ إِذَا هَذَا اللَّيْلُ رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بِالْدُّعَاءِ:
أَدْعُو لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ وَكُنَّا نَمُدُّ الْمَنْجَنِيْقَ وَنَرْمِي عَنْهُ، وَقَدْ رُمِيَ بِحَجَرٍ وَالْعُلْجُ عَلَى
الْحِصْنِ مُتَقَوِّسٌ بِدَرَقَةٍ، فَذَهَبَ -أَي: الْحَجَّاجُ- بِرَأْسِهِ وَبِالدَّرَقَةِ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ،
وَقَالَ: لَيْتَهُ لَا يَكُونُ اسْتِدْرَاجًا، فَقُلْتُ: كَلَّا».

وَقَالَ عَبَّاسُ الدُّورِيِّ: «حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ فَرَاةَ جَارُنَا، قَالَ: كَانَتْ أُمِّي مُقْعَدَةً مِنْ
نَحْوِ عَشْرِينَ سَنَةً. فَقَالَتْ لِي يَوْمًا: أَذْهَبُ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فَسَلُهُ يَدْعُو لِي، فَاتَيْتُ
فَدَقَقْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي دِهْلِيزِهِ، فَلَمْ يَفْتَحْ لِي، وَقَالَ مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ أَنَا رَجُلٌ سَأَلْتَنِي
أُمِّي وَهِيَ مُقْعَدَةٌ أَنْ أَسْأَلَكَ أَنْ تَدْعُو اللَّهَ لَهَا، فَسَمِعْتُ كَلَامَهُ كَلَامَ رَجُلٍ مُغْضَبٍ،
فَقَالَ: نَحْنُ أَحْوَجُ أَنْ تَدْعُو لَنَا، فَوَلَّيْتُ مُنْصَرِفًا، فَخَرَجْتُ عَجُوزٌ فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ
تَرَكْتُهُ يَدْعُو لَهَا، فَجِئْتُ بَيْنَنَا فَدَقَقْتُ الْبَابَ، فَخَرَجَتْ أُمِّي عَلَى رِجْلِهَا تَمْشِي،
وَقَالَتْ: قَدْ وَهَبَ اللَّهُ لِي الْعَافِيَةَ». قَالَ الذَّهَبِيُّ: رَوَاهَا ثِقَتَانِ عَنْ عَبَّاسٍ.

وَأَمَامُ الْكُلِّ نَبِيٍّ الرَّحْمَةُ مُحَمَّدٌ ﷺ قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، يَقُولُ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، وَلَا أَنَا إِلَّا، أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلِ وَرَحْمَةٍ» (١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي حَتَّى تَرِمَ -أَي: تَنْفُخَ- قَدَمَاهُ، فَيَقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا» (٢). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَكَمَا بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ خِصَالَ الْخَيْرِ حِجَابٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالنَّارِ، وَجَنَّةٌ لَهُ مِنْهَا، وَأَنَّ رَكَعَتَيْنِ مَقْبُولَتَيْنِ بِوُضُوءٍ حَسَنٍ مَعَ قَلِيلٍ لُبِّ فِي الْمَسْجِدِ يَغْفِرُ اللَّهُ بِهِمَا مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِ الْعَبْدِ وَمَا اقْتَرَفَتْ يَدَاهُ.

كَمَا بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ -وَهُوَ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسْرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ- أَعَقَبَهُ بِتَحْذِيرٍ دَافِعٍ، وَتَنْبِيهِ قَاطِعٍ، فَنَهَى أَنْ يَغْتَرَّ الْمُسْلِمُ بِذَلِكَ فَيَتَّكِلَ عَلَيْهِ، فَيَهْوَنَ عَلَيْهِ الذَّنْبُ فِيهِلِكَ.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ ابْنَ أَبَانَ أَخْبَرَهُ قَالَ: «أَتَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ بِطَهُورٍ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى الْمَقَاعِدِ، فَتَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ تَوَضَّأَ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ مِثْلَ هَذَا الْوُضُوءِ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَرَكَعَ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

(١) الْبُخَارِيُّ (٦٠٩٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٨١٦).

(٢) الْبُخَارِيُّ (١٠٧٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٨١٩).

قَالَ: وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَغْتَرُّوا»^(١). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ: قَالَ: وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَغْتَرُّوا». حَاصِلُ شَرْحِهِ: لَا تَحْمِلُوا الْغُفْرَانَ عَلَى عُمُومِهِ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ، فَتَسْتَرْسِلُوا فِي الذُّنُوبِ اتِّكَالًا عَلَى غُفْرَانِهَا بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ الَّتِي تُكَفِّرُ الذُّنُوبَ هِيَ الْمَقْبُولَةُ، وَلَا أَطْلَاعَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ.

وَظَهَرَ لِي جَوَابُ آخَرٍ: وَهُوَ أَنَّ الْمُكَفَّرَ بِالصَّلَاةِ هِيَ الصَّغَائِرُ، فَلَا تَغْتَرُّوا فَتَعْمَلُوا الْكَبِيرَةَ بِنَاءً عَلَى تَكْفِيرِ الذُّنُوبِ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّهُ خَاصٌّ بِالصَّغَائِرِ، أَوْ لَا تَسْتَكْثِرُوا مِنَ الصَّغَائِرِ فَإِنَّهَا بِالْإِضْرَارِ تُعْطَى حُكْمَ الْكَبِيرَةِ؛ فَلَا يُكْفَرُهَا مَا يُكْفَرُ الصَّغِيرَةَ، أَوْ أَنَّ ذَلِكَ خَاصٌّ بِأَهْلِ الطَّاعَةِ فَلَا يَنَالُهُ مَنْ هُوَ مُرْتَبِكٌ فِي الْمَعْصِيَةِ»^(٢).

* أَقْسَامُ الْمُغْتَرُّونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ:

انْقَسَمَ الْمُغْتَرُّونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَقْسَامًا وَتَفَرَّقُوا فِرَقًا:

فَمِنْهُمْ فِرْقَةٌ: أَحْكَمُوا الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ وَالْعَقْلِيَّةَ، وَأَهْمَلُوا تَفَقُّدَ الْجَوَارِحِ، وَحَفِظُهَا مِنَ الْمَعَاصِي، وَإِلْزَامَهَا الطَّاعَاتِ، وَاغْتَرُّوا بِعِلْمِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ، وَلَوْ نَظَرَ هَؤُلَاءِ بَعَيْنِ الْبَصِيرَةِ، عَلِمُوا أَنَّ عِلْمَ الْمُعَامَلَةِ لَا يُرَادُّ بِهِ إِلَّا

(١) الْحَدِيثُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ الْبُخَارِيُّ (١٥٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٢٦)، وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَغْتَرُّوا». فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ (٦٠٦٩).

(٢) «فَتْحُ الْبَارِي» (١١/٢٥٥).

الْعَمَلُ، وَلَوْلَا الْعَمَلُ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَدْرٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، وَلَمْ يَقُلْ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَعَلَّمَ كَيْفَ يُزَكِّيهَا^(١)، فَإِنْ تَلَا عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ فَضَائِلَ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَلْيَذْكُرْ مَا وَرَدَ فِي الْعَالِمِ الْفَاجِرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وَ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

وَمِنْهُمْ فِرْقَةٌ أُخْرَى: أَحْكَمُوا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ الظَّاهِرَ، وَلَمْ يَتَفَقَّدُوا قُلُوبَهُمْ لِيَمْحُوا الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةَ مِنْهَا؛ كَالْكِبَرِ وَالْحَسَدِ وَالرِّيَاءِ، وَطَلَبِ الْعُلُوِّ، وَطَلَبِ الشُّهْرَةِ، فَهَؤُلَاءِ زَيْنُوا ظَاهِرَهُمْ، وَأَهْمَلُوا بَوَاطِنَهُمْ، وَنَسُوا قَوْلَهُ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ، فَتَعَاهَدُوا الْأَعْمَالَ وَلَمْ يَتَعَاهَدُوا الْقُلُوبَ وَالْقَلْبُ هُوَ الْأَصْلُ؛ إِذْ لَا يَنْجُو إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

وَمَثَلُ هَؤُلَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ زَرَعَ زَرْعًا، فَنَبَتَ وَنَبَتَ مَعَهُ حَشِيشٌ يُفْسِدُهُ، فَأَمَرَ بِقَلْعِهِ، فَأَخَذَ يَجْزُرُهُ وَسَهُ وَأَطْرَافَهُ وَيَتْرَكُ أَصُولَهُ فَلَمْ تَزَلْ أَصُولُهُ تَقْوَى.

وَفِرْقَةٌ أُخْرَى: عَلِمُوا أَنَّ هَذِهِ الْأَخْلَاقَ الْبَاطِنَةَ مَذْمُومَةٌ، إِلَّا أَنَّهُمْ بَعْجِبِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ يَطْنُونَ بِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ مُنْكَفُونَ عَنْهَا، وَأَنَّهُمْ أَرْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يَتَلَيَّهِمْ بِذَلِكَ، وَإِنَّمَا يُتَلَى بِذَلِكَ الْعَوَامُّ دُونَ مَنْ بَلَغَ مَبْلَغَهُمْ مِنَ الْعُلُومِ، فَإِذَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ

(١) مَا وَجَبَ عَلَيْكَ عَمَلُهُ، وَجَبَ عَلَيْكَ تَعَلُّمُهُ.

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٦٤).

مَخَالِيلُ الْكِبَرِ وَالرِّيَاسَةِ، قَالَ أَحَدُهُمْ: مَا هَذَا بِكَبِيرٍ، وَإِنَّمَا هُوَ طَلَبُ عِزِّ الدِّينِ، وَإِظْهَارُ شَرَفِ الْعِلْمِ، وَإِرْغَامُ الْمُتَبَدِّعِينَ، فَإِنِّي لَوْ لَيْسْتُ الدُّونَ مِنَ الشِّيَابِ، وَجَلَسْتُ فِي الدُّونِ مِنَ الْمَجَالِسِ شَمَتَتْ بِي أَعْدَاءُ الدِّينِ، وَفَرَحُوا بِذُلِّي، وَفِي ذُلِّي ذُلُّ الدِّينِ؛ وَيَنْسَى الْغُرُورَ، وَأَنَّ إِبْلِيسَ هُوَ الَّذِي سَوَّلَ لَهُ، بِدَلِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ كَانُوا يَتَوَاضَعُونَ وَيُؤْثِرُونَ الْفَقْرَ وَالْمَسْكَنَةَ.

وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ الشَّامَ عَرَضَتْ لَهُ مَخَاضَةٌ^(١)، فَتَزَلَّ عَنْ بَعِيرِهِ، وَنَزَعَ خَفِيَّهُ وَأَمْسَكَهُمَا، وَخَاضَ الْمَاءَ، وَمَعَهُ بَعِيرُهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ: لَقَدْ صَنَعْتَ الْيَوْمَ صُنْعًا عَظِيمًا عِنْدَ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَصَكَ عُمَرُ فِي صَدْرِهِ وَقَالَ: أَوْهَ، لَوْ غَيْرُكَ يَقُولُ هَذَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ؟! إِنَّكُمْ كُنتُمْ أَذَلَّ وَأَحْقَرَ النَّاسِ، فَأَعَزَّكُمْ اللَّهُ بِرَسُولِهِ، فَمَهْمَا تَطْلُبُوا الْعِزَّ بِغَيْرِهِ يُذَلِّكُمْ اللَّهُ.

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: لَمَّا قَدِمَ الشَّامَ، اسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ وَهُوَ عَلَى بَعِيرِهِ، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ رَكِبْتَ بِرْذُونًا^(٢) تَلَقَى بِهِ عُظَمَاءُ النَّاسِ وَوُجُوهُهُمْ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا أَرَاكُمْ هَاهُنَا إِنَّمَا الْأَمْرُ مِنْ هَاهُنَا - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى السَّمَاءِ - خَلُّوا سَبِيلَ جَمَلِي.

ثُمَّ الْعَجَبُ مِنْ مَغْرُورٍ يَطْلُبُ عِزَّ الدُّنْيَا بِالشِّيَابِ الرَّفِيعَةِ، وَالْخِيُولِ الْفَارِهِةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِذَا خَطَرَ لَهُ خَاطِرُ الرِّيَاءِ قَالَ: إِنَّمَا غَرَضِي بِهَذَا إِظْهَارُ

(١) الْمَخَاضُ مِنَ النَّهْرِ الْكَبِيرِ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يَتَخَضَّضُ مَاؤُهُ فَيَخَاضُ عِنْدَ الْعُبُورِ، وَيُقَالُ: الْمَخَاضَةُ أَيُّضًا.

(٢) الْبَرَادِينُ مِنَ الْخَيْلِ: مَا كَانَ مِنْ غَيْرِ نَتَاجِ الْعِرَابِ.

الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ لِإِقْتِدَاءِ النَّاسِ لِيَهْتَدُوا إِلَى الدِّينِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا قَصْدَهُ لَفَرَحَ بِإِقْتِدَاءِ النَّاسِ بغيرِهِ كَمَا يَفْرَحُ بِإِقْتِدَائِهِمْ بِهِ؛ لِأَنَّهُ مَنْ كَانَ قَصْدُهُ صَلَاحَ الْخَلْقِ يَفْرَحُ بِصَلَاحِهِمْ عَلَى يَدِ مَنْ كَانَ، وَكَذَلِكَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْهُمْ عَلَى سُلْطَانٍ، وَيَتَوَدَّدُ إِلَيْهِ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ، وَيَتَوَاضَعُ لَهُ، وَيَقُولُ: إِنَّمَا غَرَضِي بِهَذَا أَنْ أَشْفَعَ فِي مُسْلِمٍ أَوْ أَدْفَعَ عَنْهُ الضَّرَرَ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ ظَهَرَ لِبَعْضِ أَقْرَانِهِ قَبُولُ عِنْدَ السُّلْطَانِ لثَقُلَ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

وَقَدْ يَنْتَهِي غُرُورُ بَعْضِهِمْ إِلَى أَنْ يَأْخُذَ مِنْ مَالِهِمُ الْحَرَامِ وَيَقُولَ: هَذَا مَالٌ لَا مَالِكَ لَهُ، وَهُوَ لِصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْتَ إِمَامٌ مِنْ أئِمَّتِهِمْ، فَيَغْتَرُّ بِهَذَا التَّلْبِيسِ مِنْ جِهَةِ نَظَرِهِ إِلَى نَفْسِهِ.

وَفِرْقَةٌ أُخْرَى: أَحْكَمُوا الْعِلْمَ، وَطَهَّرُوا جَوَارِحَهُمْ وَزَيَّنُوهَا بِالطَّاعَاتِ، وَتَفَقَّدُوا قُلُوبَهُمْ بِتَصْنِيفِيَّتِهَا مِنَ الرِّيَاءِ وَالْحَسَدِ وَالْكِبَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ بَقِيَتْ فِي زَوَايَا الْقَلْبِ خَفَايَا مِنْ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ وَخُدَعِ النَّفْسِ لَمْ يَفْطَنُوا لَهَا وَأَهْمَلُوهَا، فَتَرَى أَحَدَهُمْ يَسْهَرُ لَيْلَهُ وَيَنْصَبُ نَهَارَهُ فِي جَمْعِ الْعُلُومِ وَتَرْتِيبِهَا وَتَحْسِينِ أَلْفَاظِهَا، وَيَرَى أَنَّ بَاعِثَهُ عَلَى ذَلِكَ الْحِرْصُ عَلَى إِظْهَارِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَبَّمَا كَانَ الْبَاعِثُ لِذَلِكَ طَلَبَ الذِّكْرِ وَانْتِشَارِ الصِّبَةِ، وَلَعَلَّهُ لَا يَخْلُو فِي تَصْنِيفِهِ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَى نَفْسِهِ، إِمَّا تَصْرِيحًا بِالِدَّعَاوَى الطَّوِيلَةِ الْعَرِيضَةِ، وَإِمَّا ضَمْنًا بِالطَّعْنِ فِي غَيْرِهِ لِيُبَيِّنَ فِي طَعْنِهِ فِي غَيْرِهِ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ الْغَيْرِ، وَأَعْظَمُ مِنْهُ عِلْمًا، فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ خَفَايَا الْعُيُوبِ الَّتِي لَا يَفْطَنُ لَهَا إِلَّا الْأَكْيَاسُ الْأَقْوِيَاءُ، وَلَا مَطْمَعُ فِيهِ

لِأَمْثَالِنَا مِنَ الضُّعَفَاءِ، إِلَّا أَنْ أَقَلَّ الدَّرَجَاتِ أَنْ يَعْرِفَ الْإِنْسَانُ عُيُوبَ نَفْسِهِ
وَيَحْرِصَ عَلَى صَلَاحِهَا.

فَهَذَا غُرُورُ الَّذِينَ حَصَّلُوا الْعُلُومَ الْمُهِمَّةَ، فَكَيْفَ بِالَّذِينَ قَنَعُوا مِنَ الْعُلُومِ بِمَا
لَا يَهْمُهُمْ وَتَرَكُوا الْمُهِمَّ؟! (١).

فَالْحَامِلُ عَلَى الْغُرُورِ بِالْعِلْمِ قَلَّةٌ عِلْمٌ بِسِيرَةِ السَّلَفِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَوَائِلُ
مِنَ الاجْتِهَادِ وَالْمُوَازَبَةِ وَالْجِدِّ وَتَصْفِيَةِ الْعَمَلِ مِنَ الشَّوَائِبِ، وَتَنْقِيَةِ الْقَلْبِ مِنَ
الْأَكْدَارِ.

وَإِنَّمَا كَانَ الْعِلْمُ بِالْمَنْزِلَةِ الَّتِي هُوَ بِهَا لِأَنَّهُ قَائِدُ الْعَمَلِ، فَإِذَا اسْتَكْثَرَ الْمَرْءُ مِنَ
الْعِلْمِ وَتَخَلَّفَ عَنْهُ الْعَمَلُ، كَانَ الْعِلْمُ حُجَّةً عَلَيْهِ.

وَقَدْ أَخْرَجَ الْخَطِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ قَالَ: «الْعِلْمُ إِنْ لَمْ
يَنْفَعَكَ ضَرَّكَ».

قَالَ الْخَطِيبُ: يَعْنِي: إِنْ لَمْ يَنْفَعْهُ بِأَنْ يَعْمَلَ بِهِ ضَرَّهُ بِكَوْنِهِ حُجَّةً عَلَيْهِ» (٢)



(١) «مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ» (ص ٣٠٤).

(٢) «اِقْتِضَاءُ الْعِلْمِ الْعَمَلِ» (ص ٥٦).

